في أصل الحرف والكتابة العربية

محمد ذنون زينو الصائغ(*)

تعددت آراء الباحثين والمؤرخين في أصل الحرف والكتابة العربية، ومنها ما اتفق عليه ومنها ما اختلف فيه، لذا تعددت النظريات بسبب اتجاهات الباحثين واختلاف المصادر التي استقوا منها معلوماتهم وأسندوا إليها نظرياتهم، وسنحاول في هذه المقالة بإيجاز استعراض بعض من أشهر هذه الأفكار والنظريات.

ففي أصل الكتابة العربية واشتقاق الخط العربي شاعت بين أوساط الباحثين والمؤرخين والفقهاء نظرية تدعى بـ (التوقيف)، حيث تجمع معظم المصادر العربية القديمة على أن الخط العربي الذي كتب العرب به (توقيف من الله). علمه (آدم – عليه السلام) فكتب به الكتب المختلفة فلما أظلّ الأرض الغرق ثم انجاب عنها الماء أصاب كل قوم كتابهم، وكان الكتاب العربي من نصيب (إسماعيل – عليه السلام)، وهذا الرأي لا يقوم على أساس من العلم أو سند من التاريخ صحيح. إلا أن العرب اعتنقوه وأشاعوه لتأييد النظرية

(*)

التي تذهب إلى أن إسماعيل أبو العرب المستعربة التي منها قريش أول من تكلم العربية، تعلمها من العرب العاربة ثم تعلمها عنه بنوه[1].

وربما استند الباحثون والمؤرخون في رأيهم هذا إلى عدد من الحوادث التاريخية منها ما روي عند بناء الكعبة، فبعد أن جرفها سيل عارم وأوشكت الكعبة على الانهيار اضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصاً على مكانتها، فقاموا بهدمها وكانوا يهابون ذلك، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي[2] بعد أن سألهم أيريدون من هدمها الإصلاح أم الإساءة؟ فقالوا: بل الإصلاح، فهدموا حتى وصلوا إلى أسس إسماعيل وهناك وجدوا صحافاً دوِّن فيها كثير من الحِكَم(*)[3].

ويؤيد هذه النظرية (الجهشياري) إذ يذكر أن من وضع الكتابة العربية هو (إسماعيل بن إبراهيم الخليل)، ويبدو أنه كان يقصد بذلك على طريقة لغة الكتاب المقدس، العرب أولاد إسماعيل وولده عدنان... وحينئذ يمكن فهم النص بأن المقصود بإسماعيل هم (العرب)، فهم الذين وضعوا حروفهم الأبجدية وليس إسماعيل بن إبراهيم الخليل بالذات[4].

وهناك رأي آخر يفسر معنى (التوقيف) بما معناه أن تدوين القرآن الكريم توقيف من الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، فهو الذي أمرهم أي (الصحابة - رضوان الله عليهم) أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الأحرف ونقائصها لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وما كانت العرب قبل الإسلام ولا أهل الأيمان من سائر الأمم في أدبائهم يعرفون ذلك ولا يهتدون بعقولهم إلى شيء منه، وهو سر من الأسرار خص به الله عز وجل كتابه العزيز من دون سائر الكتب السماوية التي سبقته[5].

(*) ظهرت كتابات كثيرة تنفي مقولة «العرب العاربة والعرب المستعربة» (المجلة).

ويرى البعض في نظرية التوقيف الإلهي أن أصولها كامنة في حقيقة الإلهام باعتبار أن اللغة كتدوين هي حضور الصوت في الذاكرة والقراءة وأخيراً التدوين (الكتابة)، ويعتقد بأن هذه النظرية في تفسير نشأة الخط العربي، توغل بعيداً في الغوص إلى أسباب نشأة الوسيلة التي تم بها إيصال كلام الله تعالى عبر الوحي والرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس.. والخط العربي بهذا المعنى لا يقتصر على كونه مجرد أبجديات. بل نظام معين من الأبجدية استطاعت أن تختزل في صلبها معنى للنظم (وهو ما أفصح عنه التطور الذي تطورت إليه).. يقول محمد بن عبدالجبار النفري (وقال لي - أي الحق عز وجل - أوقفت الحرف قدام الكون، وأوقفت العقل قدام الحرف، وأوقفت المعرفة قدام العقل، وأوقفت الإخلاص قدام المعرفة، وقال: لا يعرفني الحرف، ولا يعرفني (ما عن) الحرف، ولا يعرفني (ما في) الحرف، وقال لي: إنما خاطبت (الحرف) بلسان الحرف، فلا اللسان شهدني ولا الحرف عرفني).

ويلخص المتصوف الكبير (محيي الدين بن عربي) معنى نظرية التوقيف الإلهي بقوله (الحرف سر من أسرار الله تعالى. العلم بها من أشرف العلوم المخزونة عند الله)، وهو هنا يعني علم الحروف أو الجفر، أي أن هذه النظرية لا تتناول الأبجدية العربية على علاتها كمجرد علامات للتدوين من خلال المنظور التاريخي، بل تحاول أن ترجع هذه الأبجدية (المخلوقة) إلى محتواها الأصيل وهو كلام الله عز وجل[6].

والحقيقة أن نظرية التوقيف على اختلاف مضامينها تعرضت للنقد الكثير وتعددت تأويلاتها وتفسيراتها ما بين المفكرين قديماً وحديثاً.

ومن النظريات في أصل الحرف والكتابة العربية هناك (النظرية الجنوبية الحميرية): حيث شاع بين العرب أن خطهم مشتق من (المسند

الحميري)، وأصحاب هذا الرأي سواء القدماء أم من المحدثين لا يستندون إلى دليل مادي، فليست هناك علاقة ظاهرة بين خطوط حمير في اليمن، والخط العربي الذي انتهى إلينا.. ويرجح أن يكون منشأ هذه النظرية أن اليمن التي فرضت في وقت ما سلطانها السياسي على بعض الأمم العربية الشمالية في حكم دولتي (سبأ وحمير) في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد، لابد أن تكون قد فرضت على تلك الأمم ثقافتها كذلك، كما قد يكون الباعث على اعتناق هذه النظرية ما يعرفه العرب من أن مؤسسي الدولة (السبأية) في اليمن، أصلهم من إقليم (الجوف) في شمال نجد والحجاز، وهو الإقليم الذي كان الآشوريون يعرفونه باسم (عربيي)، وكانت تحكمه ملكات من بينهن ملكة سبأ، لذا لا يستبعد أن تكون هذه العلاقات السياسية وعلاقات الهجرة بين جنوبي بلاد العرب وشماليها سبباً في الاعتقاد الذي انتشر[7].

فسكان الجزيرة العربية لم يبقوا منطوين على أنفسهم في جزيرتهم على مر الأزمان، بل إنهم كانوا ينزحون من الجزيرة إلى البلاد المجاورة لها قبل الإسلام، وذلك عن طريق التسرب التدريجي تارة، وطوراً عن طريق الهجرة الجماعية، والتاريخ يعطينا معلومات عديدة عن الموجات البشرية التي تدفقت من الجزيرة العربية إلى خارجها في مختلف العصور القديمة[8]. فضلاً عن العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين العرب والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم، فمن المعروف عن العرب أنهم اشتغلوا من قديم الزمان بالتجارة عبر شبه الجزيرة العربية بين اليمن والبتراء وجنوب الشام، وأنه كان لقريش بوجه خاص علاقات تجارية مع أهل الشمال وأهل الجنوب، مع الأنباط والغساسنة في تخوم الشام، ومع المناذرة واللخميين في إقليم (الحيرة)، ومع العرب الجنوبيين في اليمن، وأشار القرآن الكريم إلى رحلتي الشتاء والصيف إلى تلك الأنحاء، وكانت تقوم بهما قريش بقصد التجارة والكسب في العصر الذي سبق الإسلام، وأفادت منهما شيئاً غير يسير من أسباب الحضارة ومظاهر العمران ومنها الكتابة[9].

وهناك في أصل الخط والكتابة العربية أيضاً (النظرية الشمالية - الحيرية) وهي نظرية عربية أخرى يذكرها عدد من المؤرخين العرب وعلى رأسهم (البلاذري)، الذي يروي عن عباس بن هشام بن محمد السائب الكلبي عن جده وعن الشرقي القطامي: أن ثلاثة من قبيلة طي اجتمعوا في بقة هم «مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة» وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلم منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلم عن هؤلاء نفر من أهل الحيرة.. يقول: وكان بشر بن عبدالملك الكندي أخو الأكيدر صاحب دومة الجندل. يأتي الحيرة فيقيم بها إلى حين فتعلم الخط العربي من أهلها، ثم أتى مكة في بعض من شانه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة من كلاب، يكتب. فسألاه أن يعلمهما فعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا، ثم أتى بشر وأبو قيس الطائف في تجارة يصحبهما غيلان بن سلمة الثقفي وكان قد تعلم الخط منهما، فتعلم الخط منهم نفر من أهل الطائف، يقول: ثم مضى بشر إلى ديار مضر فتعلم الخط عنه نفر منهم، ثم رحلوا إلى الشام فتعلم الخط عنهم أناس هناك.. وهكذا عرف الخط بتأثير الثلاثة الطائيين وبشر عدد لا يحصى من الخلق في العراق والحجاز وديار مصر والشام)[10].

وربما استند الباحثون والمؤرخون حول أصل الحرف والكتابة العربية أيضاً إلى ما كان في انتشار النصرانية بشكل واسع في عهد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وقبل بعثته أيضاً بكثير، في قبائل قضاعة وربيعة وتميم وطي، فقد كان ذكر الراهب النصراني ووصفه يتردد كثيراً في الشعر الجاهلي، وأشهر نصارى العرب هم (العباد) في الحيرة الذين بقوا على نصرانيتهم إلى عصر العباسيين، ولعل نصارى الحيرة والعباد على وجه الخصوص أول من كتب الخط العربي[11]. أو استندوا إلى ما قيل في الشعر الجاهلي، فهذا رجل كندي من دومة الجندل يَمُن على قريش في أبيات إذ يقول:

ولا تجحدوا نعماء بشرٍ عليكم فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتم من المال ما قد كان شتى مبعثرا
وأنفيتم ما كان بالمال مهملاً وطامنتم ما كان منه مبقرا
فأجريتم الأقلام عوداً وبدأةً وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتم عن مسند الحي حميراً وما زبرت في الصحف أقلام حميرا

من هذه الأبيات الشعرية استدل بعض المؤرخين بأن أول من كتب بخطنا هذا وهو (الجزم) مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة وهم من قبيلة طي، وروي كيف تعلموه فقيل بأنهم تعلموه من كاتب الوحي (لهود - عليه السلام)، ثم علموه أهل الأنبار ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة.. فتعلمها بشر بن عبدالملك أخو الأكيدر بن عبدالملك صاحب دومة الجندل، وكان له صاحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق فتعلم حرب منه الكتابة، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج (الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان)، فتعلم منه جماعة من أهل مكة، لذا كان أكثر الكتاب يومذاك في قبيلة قريش.. فمَنَّ ذلك الرجل الكندي على قريش بذلك.

وسمي خط العرب بخط الحزم لأن الخط الكوفي كان أولاً يسمى الجزم قبل وجود الكوفة لأنه جُزِّم، أي اقتطع وولد من المسند الحميري، ومرامر هو الذي اقتطعه[12].

إن هذه النظرية التي أيدها عدد من المؤرخين العرب القدماء تنوقلت بروايات عدة، متقاربة في محتوياتها، ومفادها كما مر بنا قبل برهة وجيزة بأن الكتابة العربية في نشأتها ربما انتقلت دون سواها بوساطة بعض الشخصيات العربية، وهذا ما ورد أيضاً في السيرة الحلبية التي تنسب ذلك إلى (نزار بن معد بن عدنان)، أو سيرة ابن هشام التي تجعل من (حمير بن سبأ) واضعاً لها. أو أنها انتقلت عن طريق بعض الأقوام لا الأشخاص.

لا بل إن هناك من ينسب الأمر إلى بعض المدن كالحيرة والأنبار، أو إلى بعض الشخصيات الدينية كإسماعيل بن إبراهيم الخليل (عليهما السلام).. وهناك نفر آخر قالوا بنظرية التوقيف الإلهي بمنظورها الإلهي البحت.

أو ما تناقله آخرون واختلفوا قليلاً في روايته عن أن ثلاثة من العرب هم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامرة بن جدرة، كانوا قد اجتمعوا وقاسوا هجاء اللغة العربية على هجاء السريانية ثم وضعوا الخط العربي، فالأول (مرامر) وضع الحروف، والثاني (أسلم) فصل الحروف ووصلها، والثالث (عامر) وضع الجزم، أي القطع لأنه أي الحرف مقتطع من المسند الحميري، فتعلم عنهم قوم من الأنبار ثم تعلم من هؤلاء جماعة من الحيرة[13].

وقيل في أصل الخط والكتابة العربية والفضل في اكتشافهما بأنه يعود إلى الشعوب السامية، فهم الذين بكروا وسبقوا غيرهم من الشعوب في ابتداعهم أساليب الكتابة، والفضل الأكبر كان للفينيقيين في ابتداع الحرف وفي نشره في العالم القديم، أما الآراميين فكان فضلهم في حمله إلى أقاصي الشرق[14].

ورجَّحت بعض الآراء المعتمدة على الدراسات الموضوعية للنصوص المكتشفة ومناقشتها وتمحيصها إلى أن الخط العربي يعود في أصله ونشأته إلى الخط النبطي والذي هو بدوره متطور عن الخط الآرامي، ويؤكد هذا الرأي د. عفيف بهنسي بقوله: (أما الرأي الذي اتفق عليه أكثر الباحثين فهو أن الكتابة التي ظهرت في جبيل انتقلت إلى الآراميين، واستعمل الأنباط الكتابة الآرامية وطوروها وامتد تطورها إلى العربية)، والمقارنة بين الخطين النبطي والعربي في أول نشأة الخط العربي يؤكد أن غالبية الحروف العربية قد حافظت على أشكالها، التي كانت قيد الاستعمال في القلم النبطي المتأخر

مثل (الباء والجيم والحاء واللام والنون والكاف والباء والألف)، وأن بعضها الآخر نما نحو التبسيط كـ (الألف والواو والكاف والعين والقاف والفاء)، وأن أشكالاً جديدة ظهرت لبعضها الآخر مثل (الهاء والدال والميم والسين والشين والراء والثاء)، وهورأي مقنع إلى حد ما[15].

تلك هي خلاصة المنظور التاريخي للنظريات في نشأة الحرف والكتابة العربية، أي من ناحية الجانب اللغوي للأبجدية باعتبارها الوظيفي في تحقيق الاتصال الفكري والتخاطب بوساطة التدوين[16].

الهوامش

1) إبراهيم جمعة، قصة الكتابة العربية، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، 1947، ص 7.

2) الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)، ط 1، مكتبة الفجر، دمشق، دار السلام، السعودية، 1418هـ، ص 74.

*) عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالاً كلها.

3) الشيخ محمد الخضري بيك، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، تحقيق محيي الدين الجراح، دار الكتب العلمية، بيروت، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1978، ص 20.

4) شاكر حسن آل سعيد، الأصول الحضارية والجمالية للخط العربي، ط 1، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، 1988، ص 78.

5) نفس المصدر السابق، ص 79.

6) نفس المصدر السابق، ص 80.

7) إبراهيم جمعة، قصة الكتابة العربية، مصدر سابق، ص 9.

8) ابو خلدون ساطع الحصري، في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985، ص 155.

9) إبراهيم جمعة، قصة الكتابة العربية، مصدر سابق، ص 8.

10) نفس المصدر السابق، ص 12.

11) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، عربه د. عبدالحليم النجار، الجزء 1، ط 4، دار المعارف، القاهرة، 1977، ص 124.

12) السيد محمود شكري الألوسي البغدادي. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عني بشرحه وضبطه وتصحيحه، محمد بهجة الأثري، الجزء 3، ط 2، المطبعة الرحمانية، مصر، 1342هـ - 1924م، ص 368.

13) شاكر حسن آل سعيد، الأصول الحضارية والجمالية للخط العربي، مصدر سابق، ص 79.

14) قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص 99.

15) شاكر حسن آل سعيد، الأصول الحضارية والجمالية للخط العربي، مصدر سابق، ص 77.

16) نفس المصدر السابق، ص 80

المراجع والمصادر

1) إبراهيم جمعة، قصة الكتابة العربية، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، 1947.

2) أبو خلدون ساطع الحصري، في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985.

3) السيد محمود شكري الألوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عني بشرحه وضبطه وتصحيحه، محمد بهجة الأثري، الجزء 3، ط 2، المطبعة الرحمانية، مصر، 1342هـ - 1924م.

4) شاكر حسن آل سعيد، الأصول الحضارية والجمالية للخط العربي، ط 1، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، 1988.

5) الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)، ط 1، مكتبة الفجر، دمشق، دار السلام، السعودية، 1418هـ.

6) الشيخ محمد الخضري بك، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، تحقيق محيي الدين الجراح، دار الكتب العلمية، بيروت، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1978.

7) قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.

8) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، عربه د. عبدالحليم النجار، الجزء 1، ط 4، دار المعارف، القاهرة، 1977.